بكين فى ٢ مارس سنة ٩٦ وبعد أن استراح بها عاد الى بلاده عن طريق سيبريا فالروسيا بعد ان قضى فى سياحته ألف يوم ويوم بالتمام

ونال من الشهرة وبعد الصيت مالم ينله أعظم القواد وأكبر الفاتحين وقال عن هذه المدينة ان أغلب سكانها من المسلمين وانهم باجتهادهم وصداقتهم فى المعاملة صارت جميع موارد ثروة البلاد فى أيديهم

محمد فريد

هل نحن في عصر المدنية ؟

ترى الناس وتسمعهم صغيرهم وكبيرهم يتباهون بالمدنية الحاضرة ويعجبون بنور القرن التاسع عشر الذى سرى الى الامم فرفع من شأنها ارتفاعا لا يقال عنه الا انه نهض بالنوع البشرى ودخل به فى دور جديد من الحياة . ذلك بأنك كما يقول بعضهم ترى العلوم انتشرت حتى عمت الرفيع والوضيع والمواصلات سهلت والابعاد قربت والاتعاب خفت بفضل المخترعات فراجت أسواق التجارة والصناعة وتيسر لكل أن يشتغل ويعيش وبهذا عمر العالم وسعدت أحوال الناس فأصبحوا فى رغد وهناء . أو كما يقول البعض الآخر أصبحت ترى كلا صغيرا وكبيرا نال حريته الشخصية واحترمت حقوقه المقدسة . وسوى العدل بين الناس غنيهم وفقيرهم قويهم وضعيفهم فساروا امام القضاء سواء يأخذ لذى الحق حقه وينصر الضعفاء المغلوبين فتلا هذا وذاك أن عرفت حقوق بنى الانسان فنبذ الرق وارتفع شأن المرأة وشمل الامن الجميع فى أموالهم وأعراضهم فتمت لهم بذلك السعادة وحازوا من المدنية أقصاها

ونحن لا نتعرض لنفى كلام أحد الفريقين أو اثباته ولكنا ندع ذلك جانباً ونبحث فى هذا العالم لنتحقق ماهو عليه وماهدانا اليه البحث المبني على المشاهدات

التي هى من اليقينيات أولى بالاثبات

وقبل أن نخوض في البحث يجب أن نعرف المدنية ثم نطبق التعريف على هذا العصر لنري هل تجتمع أوصافها وشروطها فيه؟

فالمدنية التى يجدر أن تسمى مدنية هى ترقى الافكار الداعى لتحسن الاخلاق والاحسان فى المعاملات . ولا نريد بترقي الافكار تفننها فى الوسائل والمخترعات فان هذا لايجلب الا كثرة المال والمدنية ليست فيه كما سترى ولكنا نريد كما قيدنا انتقالها من المدارك الشهوانية الي المدارك الروحانية مدارك الضمير الحر والنفس الطيبة المهذبة وتفسير ذلك ان الانسان خلق وله كما يقول الفلاسفة نفسان واحدة حيوانية والاخرى روحانية فالاولى هى الامارة بالسوء الداعية الي الشهوات والثانية هي الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر والاصل في الانسان ان تتغلب عليه الاولى لمعاشرته للناس ومعاملته اياهم فتتملكه الرذائل ولكن اذا استعملت معه الوسائل لقهرها فقهرت وتغلبت الثانية عليها تملكته الفضائل وصار بعد ان كان لايسير الا حيث يقوده طمعه وشره يسير حيث يرى الفضيلة ويتبعها وبعبارة أخرى ينتقل من المدارك الحيوانية المبنية على الشهوة الى المدارك الروحانية المبنية على الفضيلة وحبها لذاتها وهذا هو الذى نسميه ترقياً فى الافكار وبه يحق لنا ان نعرف المدنية

وبديهى انه اذا ترقت الافكار على هذا الوجه الذى قيدناه ووصفناه ساد حب الفضيلة على القلوب وصار الناس اخوة يتعاملون ولا يتشاقون وكان مجموع النوع البشري حلقة واحدة أجزاؤها متماسك بعضها ببعض وفى هذا ولا شك للارض العمار على أحسن مايكون وللناس السعادة على أتم مايمكن وللعالم المدنية على أرقى مراتبها

أما مايظنـه بعض الناس من أن المدنية فى المال فهذا ليس حقيقياً لان المدنية كما قدمنا صفة كمال تقوم بالاخلاق تجعل المعاملة حسنة والسير مستقيما وليس في المال هذه الصفة فان قيل هو يساعد على استعمال وسائل التهـذيب التى تكسبنا اياها قلنا هو كما يساعد على اكتسابها عونه أكبر لاماتتها لا بل هو اذا ساعد على تهذيب واحـد أطغى بجانبه ألوفا مؤلفة وهذا مشاهد بالعيان لايحتاج الي البرهان

وليس حقيقياً كذلك مايتوهمه فريق من ان المدنية فى انتشار التجارة والصناعة وسهولة المواصلات وخفة الاتعاب فان كل هـذه لاترقى الافكار الترقى الذى هو المدنية ولـكن هـذا الـترقى واسـطة عظمي فيها فهى تجيء تبعاً له ولا يجيء تبعاً لها

تلك هى المدنيـة بالاجمال وتلك هى أوصافها وحدودها واذا عرفناها علمنا ان المقصود بالامتحان في هـذا العالم ليس هو الظاهر الذي يبـدو أمام الاعين جذابا خلابا ولـكن الداخل الذي هو الحقيقـة المقصودة والذي ليس شيأ آخر غير الاخلاق والافكار

وثابت ان الاعمـال والمعاملات ترجمان الاخـلاق والافكار فلننظر فيما عليه هذا العالم من الاعمال والمعاملات لنقف على كنه أخلاقه وأفكاره أو بعبارة نقف على نصيبه من المدنية

لا يشك الناقد الخبير فى أن أساس معاملات العالم الآن هو الغرض بمعنى انه هو المسـير والقائد للناس في جميع معاملاتهم فاذا أحسنوا فلغرض واذا أساؤا فلغرض . كل يسعي لنفسه لايهمه الاهى فحيث وجد خيرها سار اليه ولو كان فى ذلك ضرر باخوانه لا بل بأهله كانهم لم يوجدوا الا ليتزمنهم

حاجته . وبديهي ان هذا مما يقطع الصلة بين أفراد العالم لانه يجعل كل فرد منهم يظن انه عالم وحده مستقل بنفسه لا رابط بينه وبين اخوانه ولا قرابة بينه وبين أخيه فيتسع المجال للخصومة وتقوى عوامل المنافرة ومن ذلك ماتراه كل يوم وكل ساعة من قيام المشاحنات والتساعها بين أفراد العائلات طمعا منهم فى بعض مع أن فيهم الاخوة والاخوات بل فيهم غالبا الاولاد والامهات ومنه أيضا مانسمع كثيرا من أن واحدا قتل أخاه بل أباه طمعا فى نوال ثروته بعد موته

واذا سمعنا بأن هناك قوما نسوا مصلحتهم الشخصية وفضلوا عليها مصلحة أمتهم فليس هؤلاء بأفضل من غيرهم لانهم ان كانت مصلحة أمتهم فى ضرر غيرها فعلوه ألا ترى أنهم اذا قامت الحرب من أمتهم ضد غيرها قاموا يقتلون ويسفكون الدماء مع أن المدنية لافارق فيها بين أمة وأخري بل الناس فيها سواء

وليس يخفى مايجر ذلك من النتائج فاستيلاء الغرض على النفس في المعاملات يجر حتما الي استعمال الكذب والغش والخداع والتحيل والنصب والتزوير والسلب والنهب وغير ذلك مما هو فساد فى الاخلاق ليس بعده فساد . وهذا هو السبب فى أن الامور التي يسمونها مدنية حالية مادخلت أرضا الا انتشرت فيها هذه العوامل رغما عن اجتهاد الحكومات فى منعها فبئست المدنية مدنية كهذه كلها غش فى غش وكذب في كذب ولنعمت اذن العصور الخالية التى كان الناس فيها يعيشون لايعرفون هذه الدنايا الا اسما وان عرفها قليل منهم فهم مطرودون مدحورون

قرأت فى بعض النوادر ان قائدا رجع بجيشه من واقعة تعبانا منهوك

القوى ولم يكن عنده شيء تقتات به الخيل فسار في الارض يبحث عن مرعي أو شبهه ينقذها به من هلاك الجوع فلم يقف بعد التعب الشديد الا على كوخ صغير قائم وحده في فضاء لا زرع بجانبه ولا ماء فيه فمشي اليه فوجد فيه شيخا جالسا يقرأ فسأله أن يدله على مرعي قريب تأكل منه الخيل وشرح له ما هي عليه من الاضناء والجوع ففكر الشيخ قليلا ثم قال له اتبعني بخيلك فسار الجميع يتبعون هذا الشيخ الي أن وصلوا الى غيط به زرع فأراد القائد أن ينزل به خيله فمنعه الشيخ من ذلك وصار كلما مروا على زرع وأراد القائد أن يطعم الخيل منه منعه الشيخ حتى وصلوا الي غيط واسع به زرع مستو فوقف الشيخ وقال للقائد هاك طعاما حلالا فأطعم خيلك منه الكفاية فسأله القائد ولم منعتنا في الاول فقال لان مافات من الغيطان ملك لغيري وأما هذا فملكي فخذوا منه ماتشاؤن . هذا كان يقوله كثير في الاعصر الماضية وأما اليوم فلا أظن أحدا يفعله

كذلك يعرف البصير ان الحرية الشخصية تعدت حدودها فحق الرادع وصار كل فرد يرى انه مادام لم يعتد على غيره ولم يخالف ماحددته القوانين الوضعية فهو حر يفعل مايشاء سواء بنفسه أم مع غيره بلا رقيب عليه فان فسق أو أهلك نفسه بالمسكرات أو أضاع أمواله مقامرة أو لم يحسن أو ينجد مضطرا أو يغث ملهوفا أو يعمل خيرا فليس ثم من يزجره أو يهديه الي سواء السبيل

وحيث ان الانسان تغلبه شهوته ان لم يجد رادعا فقد أصبح أكثر الناس بسبب الافراط في الحرية الشخصية منغمسين في المفاسد لا يتبعون الا أهواءهم فانتشر الفسق انتشارا مريعا واستعبدت الخمور الناس وطغى القمار في الاموال . كذلك أصبح الفقير البائس في لندرا يموت جوعا وذو الملايين

يمر عليه مضطجعاً فى عربته معجباً بنفسه فلا تأخذه عليه عاطفة الحنان ولا يزجره حب الانسان فيتصدق لاحياء هذا المسكين الذى هو أخوه فى النوعية وأخوه فى الجنسية بدرهم لايفقره ولا يغنيه يصرف اضعاف أضعافه فى سيكارة يدخن بها دقيقة تؤذيه ولكن يمر ممتلئاً كبرا وخيلاء كأن عينه مارأت وأذنه ماسمعت النزع والانين . وأصبح العملة أولئك الذين هم مصدر ثروة العالم وغناه بشغلهم وتعبهم الشديد آناء الليل وأطراف النهار فوق الارض وفى بطنها تعساء الحال يستعملهم أرباب المعامل كالبهائم المسخرة والجمادات المسيرة كأن لاشفقة ولا بصيرة . ثم بعد ذلك يقول الناس نحن فى عصر المدنية !!

أين هذا مما كان عند العرب حتي فى أيام الجاهلية أيام كانوا ضالين لايدينون بدين من الكرم الحاتمى واقراء الضيوف حيث توقد النار هداية للمستطعمين وتبعث الخدمة ينادون هل من جائع فنطعمه أوخائف فنؤمنه أو محتاج فنعطيه ؟

ثم أين حال الفسق اليوم من حاله لانقول فى صدر الاسلام حين كان الدين قائما يردع الناس ولكن فى اليونان والرومان والمصريين وغيرهم من أمم الاعصر القديمة ؟

ومما امتاز به ايضاً هذا العصر عصر المدنية كما يقولون الرياء والنفاق اللذان قد وصل الحد بهما الى ان بعض الامم تعتبرهما واجبا أدبيا وهذا ولاشك منتهي فساد الاخلاق . ولعمري كأنما نظر أبو العلاء المعرى الي هذا العصر بعين الغيب حين يقول

أرائيك فليغفر لي الله زلتي بذاك ودين العالمين رياء

أوكأنه عنانا بقوله

ان مازت الناس أخلاق يعاش بها فانهم عند سوء الطبع أسواء

وحسبنا بما تقدم امتحانا لاخلاق الناس ومعاملاتهم فردا فردا وإننا لو أردنا أن نحصر جميع ماهم عليه لطال بنا الكلام ولالزمنا لذلك مجلدات طويلة عديدة

أما معاملتهم أمة أمة فهي الطامة الكبرى علي المدنية لانها من أولها الي آخرها مبنية علي الطمع والتحيل والخداع والرياء واستعباد الضعيف حيث لاحق الا مع القوة ولا ناصر الاهى وعندئذ تري أولئك المدعي المدنية يحصدون الارواح شر حصاد مما لا تأتيه الوحوش الكاسرة فلبئس مايدعون . ولانطيل القول في شرح معاملات الامم فالقراء جميعاً لايجهلونها ونكتفى بما لمحنا به منها اعتمادا على علمهم بها .

وان قوما أساس معاملاتهم الاغراض والاميال النفسانية لجديرون بأن يحكم عليهم بأن مداركهم حيوانية محضة فمابالك اذا أضيف الى ذلك ماذكرناه ومالم نذكره من دلائل فساد الاخلاق وانحطاط الافكار. واذا لاحظنا بعد ذلك ان الامور التي يسمونها مدينة حالية لم تنل الا خمس العالم تقريباً والباقون لايعرفونها . عجبنا كيف يقول الناس ان نور مدنية هذا العصر نهض بالنوع البشري ودخل به في حياة جديدة

ونرى من الواجب علينا تلقاء هذا الحكم الذى هو وان كان صارما لكنه الحقيقة فان العلوم كان لها بعض التأثير الحسن فى افكار الناس وأخلاقهم فجعلتهم ينبذون الرق ويقيمون العدل الي حد محدود وهذان ولا ريب يصدق عليهما انهما ترق فى الافكار لم يظهرا الا فى هذا القرن . كذلك لها أحسن